الخلافة الإسلامية
نشأتها وتطورها

د. محمد نعيسان

كانت للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مهمتان فى حياته الأولى التبليغ عن الله بحكم الرسالة التى اختير ليقوم بأدائها قال الله تعالى « يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لايهدى القوم الكافرين »(١) ويقول أيضاً « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا »(٢) فهو بذلك مشرع عن الله ، والثانية كونه إماماً للمسلمين تجتمع إليه كلمتهم ، يوجههم إلى الخير ويبعدهم عن الشر ، وإليه القضاء فى مشكلاتهم بحسب مايوحى إليه من الشريعة ، ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الاحكام ، كما كان قائدهم فى الحرب والغزو ، والوظيفة الأولى انتهت بموته عليه السلام بعد تشريع ما أراد الله تشريعه ، وختم ذلك التشريع بقوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »(٣) فلم يكن بعد ذلك لأحد إلا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها(٤) .

والوظيفة الثانية هى موضوع بحثنا والتى عرفت بالخلافة أو الإمامة الكبرى كانت من أولى المشاكل التى واجهت المسلمين بعد وفاة نبيهم ،

---

(١) من سورة المائدة ٦٧ (٢) من سورة المائدة آية ٣

(٣) من سورة الفتح آية ٢٨ (٤) صور من حياة الرسول للأستاذ أمين دويدار ص ٤٥٥ .

ويقول أبو الحسن الأشعرى « اختلف الناس بعد نبيهم فى أشياء كثيرة ، فصاروا فرقاً متباينين ، إلا أن الإسلام يجمعهم (١) ، وقد اختلف الناس فى نوع الحكم بعد رسول الله، لأن القرآن الكريم لم يشر أى إشارة إلى بيان هذا النوع من الحكم ، وكذلك الرسول الكريم لم يؤثر عنه نص صريح وقاطع فى مسألة نوع الحكم ، فلم يعين من يخلفه أو البيت الذى يكون منه الخليفة ولا الطريقة التى ينقل بها الاستخلاف، وشاء الله ورسوله ترك أرغام الأمة الإسلامية على كيفية خاصة فى الحكم أو تعيين الحاكم ، أو البيت الذى يختار منه ، اكتفاءاً بما فى القرآن والسنة من القواعد الكلية التى يقوم عليها النظام العام ، وقد رسم للحاكمين بطريق التحديد مبادىء الحكم الصالح ، الذى يقود الجماعة إلى الخير والرخاء والسلام ، وهو الحكم بالحق والعدل والمساواة ، وقد وكل ماعدا ذلك إلى الأمة ، تختار حاكمها كما تشاء بالطريقة التى تراها ، ومن البيت الذى تريده فى كل زمان ومكان ، ضرورة أن الظروف والأحوال تتغير والمجتمعات تتطور كما تختلف البيئات والمجتمعات، وما يصلح اليوم قد لا يصلح غداً وما كان بالأمس غير صالح ، قد يكون غدا صالحاً فى الأمة ، فالأمة أعرف بدنياها تشكلها كما تشاء ولا ضرر من ذلك مادام الدستور العام قائماً مرعياً موجها للحاكمين والمحكومين، ولذلك كان التشريع الإسلامى فى هذه الناحية فى أسمى مراتب الكمال ، وما أعظم جواب أبى بكر الصديق رضوان الله عليه ، لمن قال من المسلمين ألم يترك رسول الله نصاً أولم يسم الخلافة لأحد ؟ قال أبو بكر إن النبى خلى إلى الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم متفقين غير مختلفين »(٢) على أنه ينبغى ألا يغيب عنا أمر ذوبال ، وهو أن الصحابة رضوان الله عليهم من مهاجرين وأنصار قد اختلفوا فى بيعة السقيفة اختلافا كبيراً حول اختيار الحاكم ، وهم علماء الأمة الأول

---

(١) السلطات الثلاث دكتور سليمان الطماوى ص٢٤٧ .

(٢) الأحكام السلطانية الماوردى ص ٦٤ .

الذين تلقوا عن الرسول بهجة الدين وتفهموا عنه كل شيء ، أفلو كانوا يعرفون نصاً من القرآن الكريم أو من الحديث الشريف من النصوص الملزمة الواجبة الطاعة أكانوا يخرجون عليه ولا يلتزمونه(١) ؟ ثم ألا يدل اختلافهم حول نوع الحاكم على أنها منصب من شأن الأمة أن تقرر مصيره حيث لا يجدون ملزمه ، إذن فقد كان ترك مسألة الحكم بدون تحديد هو فى ذاته اعتراف بالرأى العام للجماعة أو كما تقول فى العصر الحديث إرادة الأمة ، إن الدولة الإسلامية الأولى قد ظهرت ببزوغ فجر الإسلام وأعطت للعقل البشرى دوره فى الحياة من حيث النمو والادلاء بالرأى دون أن تضع قيوداً عليه ، فقد جعلت نظام الحكم يتغير فى صور متعددة ، فهو فى عهد الرسول الكريم غيره فى عهد الخلفاء الراشدين غيره تماما فى عهد بنى أمية مختلفاً فى عهد بنى العباسى ومن جاء بعدهم ، ولقد أجل هذه الحقيقة التاريخية وأبرزها أجل إبراز المورخ ابن خلدون فهو يرى أن الخلافة قد مرت بعدة مراحل منها .

أولا : مرحلة الخلافة القائمة على أساس الدين ، وهى ما يطلق عليها الفقهاء الخلافة الكاملة وهو يصف هذه المرحلة بقوله « إن الأمر كان فى أوله خلافة ووازع كل واحد فيها من نفسه هو الدين ، وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم(٢) .

ثانياً : وهى تحول الخلافة إلى ملك ولكنه ملك يقول على دعائم الدين ويصف ابن خلدون هذه المرحلة حيث يقول : صار الأمر إلى الملك وبقيت معانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه ، ثم انقلبت عصبية وسيفاً « وهكذا كان الأمر لعهد معاوية والصدر الأول من خلفاء بنى العباس .

ثالثاً : غلبت معانى الملك على الخلافة ويصف ابن خلدون هذه المرحلة

---

(١) النظريات السياسية فى الإسلام ضياء الريس ص ٢٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ .

بقوله : ثم ذهبت الخلافة ولم يبق إلا اسمها ، وصار الأمر ملكا بحتا ، وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت فى أغراضها من القهر والتغلب فى الشهوات وهكذا كان الأمر فى بنى أمية وبنى العباسى أيضاً .

رابعاً : اندثار معانى الخلافة كلية وتحولها إلى ملك خالص أو فى هذا المعنى يقول ابن خلدون ، « ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم ، وبقى الأمر ملكا ، كما كان الشأن فى ملوك العجم فى فارس والروم يدينون بطاعة الخليفة تبركا ، والملك بجميع ألقابه ومناصبه لهم ، وليس للخليفة منه شىء » .

السمات المميزة لعهد الخلفاء الراشدين :

استطاعت الأمة الإسلامية فى البيعة الخاصة والعامة ، ان تقنن على هدى القرآن وسنة الرسول الكريم ، أول مؤسسة للدولة الإسلامية وأطولها عمرا وهى « الخلافة الكاملة » لأن حكم الخلفاء التزم التزاماً شديداً بالسوابق ، التى تقررت فى سقيفة بنى ساعدة وبالسير على الصراط المستقيم للدين وتعاليم النبى الأمين ، وأوضح الفقهاء أن تقنين نظام الخلافة الكاملة قد تقرر وفق الأسس الآتية :

أولا : إقامة الخلافة واجبة ومقدسة على ما سواها إذ اتضح فى سقيفة بنى ساعدة ، أن الجميع مهاجرين وأنصارا كانوا برغم تباين آرائهم متفقين على ضرورة إقامة رئيس للدولة الناشئة يخلف الرسول الكريم ، ومما يؤيد ذلك . سئل أحد الصحابة : أشهدت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قيل فمتى بويع أبو بكر ؟ قال : يوم مات الرسول الأعظم كره الناس أن يبقوا بعض يوم وليسوا فى جماعة(١) .

---

(١) مروج الذهب المسعودى جـ ٢ ص ٣٣٠ ، السلطات الثلاث « الطحاوى ص ٤٢٠ .

ثانياً : تحديد معنى النظام السياسى الجديد ، ومعناه على نحو ما قاله أبو بكر وهو يخاطب المسلمين : « لابد لكم من رجل يلى أمركم ويصلى بكم ويقاتل عدوكم(١) » ، فأوضح أبو بكر أن الخلافة نظام يتولى صاحبها رعاية التراث الدينى والمدنى ، وذلك بالحفاظ على الدعوة الإسلامية ونشرها والإشراف على تماسك المجتمع الإسلامى الجديد فى مجال الدين والدنيا سواء ، فالخليفة ينظر فى مصالح الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الدنيوية والدينية(٢) » .

ثالثاً : إقرار الانتخابات الحرة قاعدة للخلافة وليس نظام الوراثة ، وجمعت قاعدة الانتخاب وفق السوابق فى اجتماع سقيفة بنى ساعدة ثم فى حكم الخلفاء الأربعة أنفسهم بين المبادىء الإسلامية والتقاليد العربية .

رابعاً : تقرير حق الأمة فى اختيار الخليفة عن طريق الجماعة التى اصطلح الفقهاء على تسميتها باسم أهل الحل والعقد ، وللنص على حق الأمة فى الرقابة والمناقشة عند إتمام اختيار الخليفة ، إذ لم ينفرد أهل الحل والعقد باختيار الخلفاء إلا بعد أن تعتمده الأمة فى المسجد الجامع فى اليوم التالى على إتمام البيعة .

خامسا : تحديد سلطة الخليفه بالرأى العام مع تقيدها أيضا بالدستور العام وهو القرآن الكريم وسنة الرسول العظيمة ، وتجلى احترام الخلفاء لهذا الالتزام فى الخطب العامة التى كانوا يلقونها عقب إتمام البيعة العامة ، وهو ما أطلق عليه تحديد برنامج الحاكم الجديد » (٣) . وفى ذلك يقول

---

(١) نظام الحكم الإسلامى د . محمود حلمى ص ٦٧ .

(٢) الأحكام السلطانية الماوردى ٣ .

(٣) الطبرى جـ ٥ ص ٣١٠ ، الكامل لابن الأثير جـ ٨ ص ٣١٠ ، والنظم الإسلامية حسن إبراهيم ص ٢٢ ، على إبراهيم حسن .

الخليفة الأول أبو بكر الصديق : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أخطأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله الخ »(١) .

الخلافة فى اللغـــة :

الخليفة لفظ مأخوذ من الخلافة ، والخلافة مصدر خلفه يخلفه ، أى جاء بعده أو ناب عنه ، ولقد تكرر ذلك اللفظ فى كثير من آيات القرآن الكريم ؛ ومنها قول الله تعالى « وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى »(٢) وتأتى الخلافة بمعنى خليفة ومخلوف وصيغته « فعيل » وتأتى بمعنى مفعول مثل جريح ومعناه مجروح(٣) وقد حمل بعض المفسرين عليه قول الله تعالى ... « إنى جاعل فى الأرض خليفة» (٤)

وهذا المعنى يوضح للقارىء الكريم أن خليفة معناه مخلوف أى يخلفه فى الأرض أهله وبنوه بعده ، ومعنى خليفة يتضمن معنى آخر ، فخليفة بمعنى خالف وصيغته فعيل تأتى أيضا بمعنى فاعل مثل عليم بمعنى عالم وقدير بمعنى قادر ، وأورد بعض المفسرين فى الآية الكريمة « إنى جاعـــل فى الأرض خليفة »

أن الخليفة من هذا النوع ، على أنه كان قبل آدم عليه السلام فى الأرض الجن أو الملائكة وأنه خلفهم فيها (٥) وقال بعضهم إنه خليفة الله على طريق

---

(١) تاريخ الامة الإسلامية محمد الخضرى ص ١٧٠ .

(٢) الاعراف آية ١٤٢

(٣) لسان العرب والمصباح المنير باب خلف .

(٤) سورة البقرة آية ٣٠

(٥) مجلة العربى مقال للاستاذ عبد الستار فراج

المجاز بمعنى أنه يقوم بحقوق الله تعالى فى خلقه ، أما أكثر المفسرين مثل البيضاوى فيقول أنه ليس خليفة الله وحجتهم فى ذلك ، أنه إنما يستخلف من يغيب أو يموت والله تعالى باق موجود على الأبد لا يغيب ولا يموت(١)

ولفظ خليفة دخلت عليها تاء التأنيث فى حين تطلق على المذكر والخليفة فى غالب الأحوال لا يصح إلا رجلا ، ولكن علماء اللغة عللوا دخول تاء التأنيث فى خليفة على سبيل المبالغة ، واستدلوا على ذلك بكلمة علامة أى كثير العلم وراوية كثير الرواية وقيل إن تاء التأنيث جاءت لتأنيث اللفظ ولا يراد بذلك معنى اللفظ (٢)

ثم ذكر البيضاوى فى تفسير الخليفة من يخلف غيره وينوب عنه والهاء فيها للمبالغة (٣)

الخلافة فى القرآن الكريم

فالخلافة مقيدة بقوانين شرعية ، يسوس الخليفة بها أمته ويحمل الناس على أحكامها بالنيابة عن الرسول صاحب تلك الشريعة السمحاء ، ومن هنا يرى ابن خلدون ، أن الخلافة وكالة عن النبى فى السلطة السياسية والدينية ، ولا يمتاز الخليفة عن عامة المسلمين إلا من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارسا للدين (٤)

فالقرآن الكريم يتضمن عبارات تعبر عن الخلافة بعبارات عامة ليس فيها تخصيص أو تحديد ، وسوف نعرض الآيات التى ذكرت فى القرآن

---

(١) تفسير البيضاوى ص ٢٥

(٢) مقالة للأستاذ عبدالستار فراج فى مجلة العربى

(٣) تفسير البيضاوى ٢٥

(٤) جورجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ١٣٧/١

الكريم وتتضمن معنى الخلافة فمنها قوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم »(١)

وقد شرح البيضاوى هذه الآية الكريمة فقال « ليجعلهم خلفاء متصرفين فى الأرض تصرف الملوك فى مماليكهم وهو جواب قسم مضمر تقديره ، وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم أو الوعد فى تحققه منزل منزلة القسم كما استخلف الذين من قبلهم يعنى بنى إسرائيل استخلفهم فى مصر والشام بعد الجبابرة (٢)

وهذا المعنى السابق لا يحمل بين عباراته المعنى المقصود من كلمة خليفة ومنها أيضا قوله تعالى « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما أتاكم »(٣) ومعنى هذه الآية الكريمة يخلف بعضكم بعضا أو خلفاء الله فى أرضه ، أو خلفاء الأمم السالفة على أن الخطاب للمؤمنين (٤) ، ويتضح من هذه الآية الكريمة أن كلمة خلفاء لا يقصد بها الخليفة المعروف فى التاريخ الإسلامى (٥)

ومنها ايضا قول الله تعالى « أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح »(٦)

---

(١) من سورة النور أية ٥٥

(٢) البيضاوى ص ٤٨٩

(٣) من سورة الأنعام أية ١٦٥

(٤) البيضاوى ص ٢٢١

(٥) غروب الخلافة الإسلامية د / الخربوطى ص ٥

(٦) من سوره الأعراف ص ٦٩

وشرح هذه الآية الكريمة فبين أن قبيلة عاد فازت بالنعم التى تمتع بها قوم نوح من قبلهم وليس فيها معنى الخليفة المراد شرحه وتوضيحه فى هذا البحث .

وهناك آية كريمة أخرى تحدثنا عن نبى آخر وهو صالح الذى رفض قومه الإيمان به ، فيدعوهم ليعترفوا بالبركات والنعم الوفيرة التى أرسلها الله لهم ، وهى محاورة هادفة كانت تعتمد على المنطق السليم وتتجه إلى الغاية الكريمة ، قال الله تعالى : واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين »(١)

ويقول أيضا « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أ إله مع الله قليلا ما تذكرون » (٢)

وأخذ قوم صالح يتخبطون بين مزالق المنطق السقيم والحجج الداحضة ويقودهم فساد العقيدة ولؤم الطبع إلى الدرك الأسفل، فينحدرون فى تفكيرهم إلى الوهم والهذيان ولقد سجل القرآن الكريم هذه المحاورة فى كثير من سوره ولا تحمل هذه الآيات السابقة معنى كلمة خليفة المقصود فى هـــذا البحث ، وإنما جرت سنة الله فى أنبيائه ورسله بأن يظهر على أيديهم من الآيات والمعجزات ما يثبت به القلوب القلقة ، ويرشد النفوس الحائرة ، ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم .

ومن آيات القرآن الكريم أيضاً قول الله تعالى « ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله »(٣)

---

(١) سورة الأعراف رقم ٧٤ (٢) سورة النمل آية ٦٢.

(٣) سورة ص ص ٢٩

وهذه الآية الكريمة توضح معانى جليلة ورشيدة لكل حاكم يتولى أمر جماعة وقد وجه الله الحكام جميعاً بما أمر به نبيه داود ، حتى يمكن أن تتهيأ لهم البيئة الصالحة والمجتمع السعيد فتهدأ نار البغضاء والشحناء ، وتجف الارض من الدموع والدماء ويعيش الناس فى جو مزدهر بالأمن والسلام ، ومما يوضح ذلك باقى الآية الكريمة حيث يقول الله تعالى « إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ويسرف بعض المفسرين عن أنفسهم وعلى الناس حينما يزعمون أن داود كان متزوجاً لتسع وتسعين امرأة، وأنه أغرم بامرأة رجل أجنبي عنه ، وأراد أن ينزعها من تحت يده ليكمل بها المائة، والواقع أن هذه الرواية من الروايات الموضوعة التى يراد بها التشكيك فى أنبياء الله الذين اختارهم واصطفاهم ، وهـــذه القصة التى ذكرها الله قصة رجلين حقيقيين يملك أحدهما تسعا وتسعين نعجة ، ويملك الآخر نعجة واحدة، وقد نازعه فيها صاحب التسع والتسعين ، وقد دخل هذان الخصمان على داود من غير المدخل المعتاد وفى غير وقت جلوسه للحكم ، ففزع منهما ظانا أنهما يريدان اغتياله فلما ظهر له أنهما إنما جاءا فى خصومة ليحكم بينهما وأن ماظنه غير واقع استغفر ربه من أجل هذا الظن ، وهذه صورة صادقة عن نبى الله داود لتكون مضرب المثل ومناراً يهتدى به الحاكم فى حكمه (١) ومن الآيات التى ذكرت فيها كلمة خليفة قول الله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون(٢) » وهذه الآية لاتحمل بين طياتها المعنى المراد بكلمة خليفة لأن الاستخلاف إنما هو فى حق الغائب أما الحاضر فلا ، ولا يجوز عقلا أن يكون آدم خليفة عن الله سبحانه وتعالى وهو حى موجود فى كل زمان ومكان .

---

(١) تاريخ الأنبياء : د الطيب النجار ص ٤١ .

(٢) من سورة البقرة آية « ٣٠ » .

وإنما أخبر الله ملائكته قبل أن ينزل الإنسان الأول إلى هذه الأرض بأنه سيجعل فيها خليفة له يتصرف فيها بأمره ، وينظم أمورها بإرشاده ويعيش عليها هو وذريته ، وظنت الملائكة أن أى مخلوق غيرهم سوف يكون مصدراً للفتنة والفساد ، وغفلوا عن علم الله سبحانه بما كان وبما سيكون وعن كلمته فى هذا الكون المترامى الأطراف :

ولا يخفى أن استخلاف آدم فى الأرض يشتمل على معنى سام من الحكمة الإلهية التى خفيت على الملائكة ، فإن الله تعالى لو استخلف الملائكة فى الأرض لما عرفت أسرار هذا الكون ، ولا استخرجت خبايا الأرض وكنوزها ، لأن الملائكة لا يحتاجون بطبيعتهم إلى ما يحتاج اليه الإنسان من زروع وثمار ، وهى تلك الأشياء التى سخرها الله للإنسان يقضى بها حاجاته ورغباته(١) » .

وقد أثارت هذه الآية كثيرا من جدال الفقهاء ، وكأن كلمة خليفة تعنى هنا شيئا ما ، أكثر من مجرد خلف فيما يقول بعض الفقهاء إنه عندما أعلن الله تعالى عن خلق آدم دعاه خليفة لأن آدم كان خليفة الملائكة الذين اعتادوا أن يعيشوا على الأرض قبل خلق الإنسان ولكن بعض الفقهاء يفسرون كلمة خليفة بمعنى وكيل ونائب وبديل وهكذا يذهبون إلى أن آدم وداود سميا باسم خليفة إذ كان كل منهما على الأرض نائبا عن الله فى هداية الناس وإنذارهم بما أمر الله (٢) .

وعلى ضوء ما سبق يتضح أن القرآن الكريم لا توجد من بين آياته آية تدل صراحة على نظام الحكم الذى يخضع له المسلمون بعد وفاة الرسول الكريم ، إلا أن القرآن الكريم يأمر المسلمين بأن يطيعوا أول الأمر فمن هذه الآيات قول الله تعالى :

---

(١) تاريخ الأنبياء د. الطيب النجار ص ٦٠ .

(٢) غروب الثلاث الإسلامية د. الخربوطى ص ٧٠ .

« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »(١) ويرى بعض المسلمين وجوب نصب الخليفة ، وابن خلدون يقول فى مقدمته إن هذا مما اتفق عليه الإجماع والدليل على ذلك إجماع الصحابة يوم السقيفة بعد وفاة الرسول على بيعة أبى بكر ثم استخلاف عمر ثم عهد عمر لأهل الشورى باختيار خليفة منهم (٢) ولكن الشىء الواضح والواقع هو أن أحداً من العلماء المفسرين لا يستطيع أن يقيم الدليل القاطع على وجوب ذلك بآية من القرآن الكريم وتريد طبعاً آية صريحة لا سبيل إلى الشك فى مدلولها ومعناها(٣) وخلاصة القول أن الخلافة أطلقت فى العرف العام على الزعامة العظمى وهى الولاية العامة على الأمة والقيام بأمورها والنهوض بأعبائها ولقد نهى أبو بكر عنه لما دعى به وقال : لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله (٤) .

الخلافة فى الحديث الشريف :

سبق أن وضحنا أن الخلافة الإسلامية الكاملة هى فى اللغة مصدر خلف ومن يخلف شخصاً آخر سمى خليفته ، لذلك سمى من يخلف الرسول ﷺ خليفة ، يخلفه فى إجراء الأحكام الشرعية ويخلفه فى رئاسة المسلمين وفى أمور الدنيا والدين معاً ، وهذا يتفق مع رأى المؤرخ ابن خلدون حيث يقول « الخلافة ، حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها(٥) » .

---

(١) النساء آية ٥٩

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٥ .

(٣) حسن ابراهيم تاريخ الإسلام ح ص ٢٤٨ .

(٤) النظم الاسلامية : د. ابراهيم البدرى .

(٥) مقدمة ابن خلدون تحقيق وتعليق الدكتور على عبد الواحد وافى ص ٥١٢ .

ومما يؤيد ذلك رأى الماوردى حيث يقول : إن الخلافة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين والدنيا(١) » . وبناء على ماتقدم يتضح لنا أن الخلافة ليست حقاً شخصياً أو امتيازاً لفرد أوفئة أوقبيلة معينة ، ولكنها وظيفة تؤدى ، والعبرة فيها بأداء تلك الوظيفة ، « فالخلافة رئاسة للدولة تخضع فى مباشرة سلطانها للقانون الإسلامى الذى يستمد مبادئه من القرآن والسنة ، والذى يمكن لأحكامه أن تنمو وتتطور - وفقاً لظروف المجتمع - دون أن تخرج عن المبادىء العامة التى يقررها القرآن والسنة(٢) » والمراد بالسنة أوالحديث ، ماورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أوفعل أو تقرير ، وبعد عصر الرسول ﷺ ضم إلى الحديث ماورد عن الصحابة ، فالصحابة كانوا يعاشرون النبى صلى الله عليه وسلم ويسمعون قوله ويشاهدون عمله ويحدثون بما رأوا وما سمعوا ، وجاء التابعون بعده فعاشروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا ، فكان من الإخبار عن رسول الله ﷺ وصحابته « الحديث(٣) » .

وللحديث قيمة كبرى فى الدين تلى رتبة القرآن ، إلا الأحاديث الموضوعة التى ظهرت بعد وفاة النبى الكريم وقد حمل الوضاع على الوضع أمور أهمها ، الخصومة السياسية بين على ومعاوية وبين الأمويين والعباسيين ، وكذلك الخلافات الكلامية والفقهية وغيرها ويتصل بهذا النحو أحاديث وضعها الواضعون فى تفضيل القبائل العربية ، وذلك أن هذه القبائل كانت تتنازع الرئاسة والفخر والشرف ، فوجدوا فى الأحاديث بابا يدخلون منه إلى المفاخرة ، كالذى وجدوه فى الشعر ، فكم من أحاديث وضعت

---

(١) أبو الحسن الماوردى / ٣ .
(٢) نظام الحكم الإسلامى د/ محمود حلمى / ٥٨ .
(٣) فجر الإسلام : أحمد أمين / ٢٠٨ .

فى فضـل قريش والأنصار وكم من أحاديث وضعت فى تفضيل العرب على العجم والروم فقابلها هـؤلاء بوضع أحاديث فى فضـل العجم والروم والحبشة والترك(١) » .

وقد ظهرت بعض أحاديث نبوية تتناول الخلافة الإسـلاميه ، وتقرر أن الخليفة يجب أن يكون من قريش ، وهى القبيلة العـربية التى ينتسب الرسول إليها .

وقد توافر هذا الشرط فى الخلفاء الأمويين فى دمشق والخلفاء العباسيين فى بغداد والخلفاء الفاطميين فى القاهرة وهذه الأحاديث تتفق فى المعنى وإن اختلفت فى اللفظ ومنها الأئمة من قريش لا يزال على الناس وال من قريش ، الخلافة فى قريش والحـكم فى الأنصار ، والدعوة فى الحبشة — أبرارها أمراء وفجارها أمراء ، ولقد أعجبت برأى للأستاذ الدكتور عـلى حسنى الخربوطى فى كتاب له بعنوان غروب الخلافة الاسلامية(٢) فسوف أعرض له يقول : نعم ورد فى السنة حديث بأن الخلافة فى قريش وهى قبيلة النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن صح هذا الحديث وجب حمله على أنه من باب الإخبار بالغيب لا من باب الأمر باتخاذ الخلفاء من قريش خاصة ، أو حمله على أنها فى قريش مادامت قريش أقوى عناصر الأمة الاسلامية وأقدرها على حفظ كرامة الخلافة ، لأنه لو كان قصد النبى أن يكون الخلفاء من قريش لقال : ذلك لجمهور الأنصار وهم القوم الذين ينتظر منهم الطموح الى خلافة النبى ، ولما كانت الأنصار تلكأت فى البيعة لأبى بكر بعد وفاة الرسـول ، وقد كاد الخلاف يفضى إلى حرب المهاجرين والأنصار ، إن الإسـلام دين عام شرعه الله ليجمع العـالم كافة ، وقد حقق الله فيه امتيازات

---

(١) فجر الإسلام / ٢٢٠ أحمد أمين .

(٢) غروب الخلافة الإسلامية د الخربوطى / ٩ .

الجنسيات والقرابات وقرر لنا وجوب احترام صوت الأمة، والاعتداد برأيها والرجوع إليها بقوله صلى الله عليه وسلم ، مارآه المسلمون حسن فهو حسن » فكيف يعقل أن ديننا هذا شأنه ، يحصر أمر خلافة الأرض فى قبيلة واحدة ، قد تدور عليها الأدوار ، فتصبح أثراً بعد عين قال تعالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس (١) » .

وما ارتفعت اليوم أمة إلا وانخفضت غداً ، وقريش ما خرجت عن دائرة البشر ، فهل يعقل أن الدين العام الذى أنزل ليضم بين جناحيه الأبيض والأسود ، يعلق أمر الخلافة على قاعدة غير ثابتة ؟

وقد قال الله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير(٢) » .

وكما وضحنا سابقاً أن آيات القرآن الكريم لم توضح مسألة الحكم بعد رسول الله فكذلك الدكتور الخربوطى ، يقول إن القرآن الكريم لم يعرض لمسألة الحكم بعد رسول الله ، فإن الحديث لم يبحث أمر الخلافة بعد وفاة محمد ﷺ ، ولكن رسول الله كان رسولا وكان حاكما سياسيا ، فى الوقت نفسه قضاؤه بين الناس وتعيينه بعض العمال إلخ ، يمكن اعتبارها من آثار الدولة ومظهرا من مظاهر الحكومة الرشيدة ، ونخرج من هذا العرض بأن الحديث الشريف لم يتعرض لتحديد نوعية الحاكم أو الحكومة التى يمكن أن تكون بعد وفاة النبى الكريم .

ويكفى أن الحديث الآتى يوضح عدم تدوين الحديث فى عهد النبى الكريم « مارواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدثوا

---

(١) من سورة آل عمران آية ١٤٠ .

(٢) من سورة الحجرات آية ١٣ .

على ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار(١) » .

الخلافة والخوارج :

واسم الخوارج جاء من خروجهم على على بن أبي طالب وصحبه وإن كان منهم من يشتق اسم الخوارج من الخروج فى سبيل الله أخذاً من قوله تعالى : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله وسوله ، ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله(٢) » وسموا أيضاً الشراة ، أى الذين باعوا أنفسهم لله من قوله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله(٣) » وقد حاربهم على فى الوقعة الشهيرة بوقعه النهروان (٤) وهزمهم وقتل منهم كثيرا .

ونظرية الخوارج للخلافة قائمة على أساس واحد وهو الاختيار الحر ، وإذا اختير الخليفة فليس بالضرورة أن يكون قرشياً بل يصح أن يكون من قريش ، ومن غيرهم ولو كان عبداً حبشياً .

وإذا تم الاختيار كان الخليفة رئيسا للمسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعا تاما لما أمر الله ، وإلا وجب عزله ، ولهذا أمروا عليهم من اختاروه منهم وسموا عبد الله بن وهب الراسب أمير المؤمنين ولم يكن قرشيا وإنما هو من راسب حى من الأزد ، وكذلك أمراؤهم من بعده (٥) » .

---

(١) فجر الإسلام ، أحمد أمين / ٢٠٩ .
(٢) من النساء آية ١٠٠ .
(٣) البقرة ٢٠٧
(٤) وقعة النهروان — على الهاشمى / ٩٩ .
(٥) فجر الإسلام : أحمد أمين / ٢٥٨ .

الخلافة والشيعة :

ولقد ظهرت البذرة الأولى للشيعة بعد وفاة النبى الكريم ؛ حيث رأى مجموعة من الصحابة أن أهل بيت النبى أولى أن يخلفوه ، وأولى أهل البيت العباس عم النبى ، وعلى ابن عمه ، وعلى أولى من العباس ، وأصحاب هذا الرأى هم أبو ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى ، وجابر بن عبد الله ، والعباس وبنوه ، وأبى بن كعب وغيرهم (١) ، وكان حزب الشيعة كـكل حزب ينضم إليه المخلص لمبادئه ، ومن يرى المنفعة فيه ، فتشيع قوم إيماناً بأحقية على فى الخلافة وولده ، وتشيع قوم كرهوا الحكم الأموى ثم العباسى لأنهم ظلموا منه ، أو أن قوما من قبائل العرب تعصبوا للأمويين فكان العداء القبلى يتطلب أن أن يكون خصومهم فى الجانب الآخر ، وتشيع كثير من الموالى ، وهكذا اعتنق التشيع طوائف مختلفة لأسباب مختلفة بل اعتنقه أيضاً قوم أسوأ من هؤلاء ، قوم أرادوا الانتقام من الإسلام فتظاهروا بالقوطية خديعة ومكراً.

وقد انقسم الشيعة إلى فرق وأحزاب ، وأساس الاختلاف بينهم يرجع إلى اختلاف فى المبادىء والتعاليم ، فمنهم المغالى فى التشيع الذى يسبغ على الأئمة نوعا من التقديس ويبالغ فى الطعن على من خالف علياً وحزبه إلى درجة الكفر ومنهم المعتدل المتزن الذى يرى أحقية الأئمة فى اعتدال وخطأ من خالفهم خطأ لا يبلغ الكفر ، واختلفت الشيعة فيما بينهم على الأئمة من ذرية على(٢) ، فرأى الإمامية أن الإمامة أو الخلافة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، تتولى تعيين القائم بها ، وإنما هى ركن من أركان الدين ، وقاعدة من قواعد الإسلام ، فلا يجوز لنبى إغفالها وتفويضها إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، ويكون معصوما من الكبائر

---

(١) فجر الإسلام ، أحمد أمين ص ٢٦٧ .

(٢) ضحى الإسلام جـ٣ ص ٩٢٠٠

والصغائر ، ومن عينه النبي يجب أن يعين من يخلفه ، وهكذا كل إمام يعين من يخلفه فى الإمامة ، والإمام عندهم معين بالذات لا بالوصف كما هو عند الزيدية ولا باختيار الأمة ؛ كما هو عند أهل السنة ، وانتهى الرأى إلى أن إمامة على كرم الله وجهه — ثبتت بالنص عليه بالذات من النبي وسندهم فى هذا : حديث اعتقدوا أنه صحيح يروونه عن النبي ﷺ «إن تؤمروا علياً ولا أراكم فاعلين، تجدوه هاديا مهديا يأخذبكم إلى الصراط المستقيم (١) وكذلك: من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ،

وفى رأينا أن فكرة الشيعة عن الخلافة ليست صحيحة ، فالثابت من خلال العرض السابق للخلافة الإسلامية أن النبي الكريم لم يوص بالخلافة لشخص معين ولا نوع الحكم الذى سوف يكون بعده؛ فقد روى أن العباس دعا على بن أبى طالب للدخول إبان مرضه ليسأله عن شأنهما فى العهد ، فأبى على ذلك وقال : إنه إن منعنا منها فلا نطمح فيها آخر الدهر (٢) » .

هذا وإذا كان هناك عهد أو وصية بالخلافة لعلى كما يدعى حزب الشيعة، لما كان هناك داع للمناقشة والمشاورة فى يوم السقيفة بعد وفاة النبي وكذلك لما كان هناك داع لمشاورة الصحابة السبعة لاختيار عمر بن الخطاب وقد اشترك على بن أبى طالب فى هذه المشاورة ثم قبل على حكم الجماعة حين اختاروا عثمان بن عفان ، كل هذا يؤيد أن النبي لم يعهد بالخلافة لأحد، بل ترك الأمر شورى للمسلمين يختارون الخليفة بإرادتهم واختيارهم الحر المطلق .

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامى الشيخ إبراهيم الدسوقى ص٢١٣

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٩